رياضة "الطبلة" في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر

الدكتور صلاح جرّار/ الجامعة الأردنية

مقدمة:

دعاني إلى إعداد هذه الدراسة داعيان: أولهما: الكشف عن رياضة أندلسية شاعت في غرناطة في عصر بني الأحمر (٦٣٥هـ- ٨٩٧هـ/ ١٢٣٨م - ١٤٩٢م) لم يرد لها وصفٌ إلا في عددٍ من قصائد الشعراء الأندلسيين، ولم يصفها أيٌّ من المؤرخين القدماء، ولم يدرُسْها أيٌّ من الدارسين المحدثين.

وثانيهما: أن الدارسين الذين درسوا الشعر في زمن بني الأحمر، أو درسوا شعر أي من الشعراء الذين وصفوا هذه الرياضة، تجنبوا التعرّض للأبيات التي تصف تلك الرياضة، لأن أحداً من هؤلاء الدارسين لا يستطيع أن يعرف صفات تلك الرياضة من خلال قصيدة بمفردها، إذ لا بد من جمع مختلف القصائد التي وصفت الرياضة وإخضاعها للمقارنة من أجل استجلاء صورة هذه الرياضة، وهو ما تهدف إليه هذه الدراسة. وأما من استوقفته هذه الرياضة من الباحثين فقد وقف حائراً بين يديها، كما فعل إميليو غارسيا غومس في كتابه "مع شعراء الأندلس والمتنبي"[١] حين قال: "إن هذه اللعبة غامضة"؛ وكما فعل محقق "أزهار الرياض" في تعريفه "الطبلة" بأنها بعض آلات الحرب[٢]، معتمداً في ذلك على معجم دوزي.

---

(١) غارسيا غومس، إميليو، مع شعراء الأندلس والمتنبي، تعريب د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨، ص٢٩٠- ٢٩١.

(٢) المقّري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م)، أزهار الرياض في أخبار عياض (٥ج)، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات، الرباط، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، (٦٠/٢ الحاشية).

وقد عثرتُ على ثماني مقطوعات شعرية متفرّقة في وصف هذه الرياضة، وردت كل مقطوعة منها ضمن قصيدة مطوّلة في وصف الاحتفالات التي كان يقيمها ملوك بني الأحمر في المناسبات الوطنية والاجتماعية والدينية المختلفة في غرناطة، وهذه القصائد لخمسة من شعراء غرناطة في عصر بني الأحمر. وقد جعلتُ هذه المقطوعات الثماني في ملحق في آخر هذه الدراسة، وجعلتُ لكل مقطوعة رقماً، وأشرتُ في أثناء الدراسة إلى كل مقطوعة برقمها.

وقد اختلفت المصادر الأدبية في اسم هذه الرياضة فبعضهم أطلق عليها اسم "الطّلْبة" وبعضهم سماها "الطَّبْلة" بتقديم الباء على اللام، وقد آثرتُ إرجاء البحث في اسمها إلى حين الانتهاء من التعرف على ملامحها وأصولها ومبادئها كما وردت في المقطوعات المذكورة، لأن معرفة مبادئ هذه الرياضة تساعد على معرفة سبب تسميتها. وتتناول هذه الدراسة، فضلاً عن ذلك صلة هذه الرياضة بغيرها من أنواع الرياضة السابقة واللاحقة.

مبادئ اللعب:

العناصر الأساسية في هذه الرياضة هي: الهدف، والرامي، وما يُقْذَف به الهدف. ويستطيع الباحث من خلال تأمل المقطوعات الشعرية التي تصف هذه الرياضة ومقارنتها بعضها ببعض، أن يستخلص صورة للهدف وطريقة نصبه في الهواء، وصفات العصيّ أو السهام التي كان يُقْذَفُ بها، وهيئة اللاعب الذي كان يقذف الهدف بالعصيّ، وشروط الفوز والخسارة، إلى غير ذلك مما يتصل بمبادئ اللعب وأصوله.

الهدف:

يشكل الهدف أساس هذه الرياضة، وتتجه أكثر الأبيات التي تصف هذه الرياضة إلى وصف الهدف، فمثلما كان هذا الهدف محط أنظار الرماة والمتفرجين ومحط رحال العصيّ التي تُقْذَفُ نحوه، فكذلك نال النصيب الأوفر من اهتمام الشعراء الذين وصفوا هذه اللعبة؛ فأشاروا إلى المادة التي صُنع منها الهدف، وطريقة إعداده، ثم الصورة التي يصبح عليها بعد إطلاقه في الفضاء.

وتتفق القصائد التي تصف هذا الهدف، على أنه هدفٌ خشبيّ يُجعل في مكان مرتفع جداً من الفضاء، وهذا ما نصّ عليه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ونقله عنه المقري في نفح الطيب، حيث يقول ابن الخطيب في التقديم لإحدى

قصائده: "وقولي في امتداح سلطاني لما احتفل لإعذار ولده، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجو المسمى بالطبلة ..."[١].

ويشير ابن الخطيب إلى أنها مصنوعة من الخشب حيث يقول[٢]:

وطاعنةٍ نحْـرَ السُّكاكِ أعانهـا على الكونِ عِرْقٌ واشجٌ ولحًى سبْطُ

(والسُّكاك: الجوّ، والعرق الواشج: المتداخلُ المتشابك الملتفّ، والسَّبْط: نقيض الجعد)[٣].

فالهدف، على ذلك، مأخوذٌ من الشجر من ساقٍ قوية ملتفّة ذات لحاء أملس، ليساعدها ذلك على الانطلاق في الفضاء عند إرسالها فيه.

ويشير ابن زمرك الصريحيّ إلى هذا الأصل الخشبيّ للهدف، حيث يقول[٤]:

وقد أُرْضعَتْ ثَدْيَ الغمائم قبلها بحجر رياض كنَّ فيه نواشيا
فلمّا أُبينَتْ عن قرارة أصلها أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا

ويقول في قصيدة أخرى مشيراً إلى صلة الرحم بين الهدف والسهام التي تطلق عليه[٥]:

تراوغها طوْراً وطوْراً تضيفها فسامٍ لأعلى مرتقاها ونازلُ
وبالأمس كانت بعض أغصان دوحها فنقّلها عنها على الرغم ناقِلُ
فحنَّت إلى أوطانها وتسابقت تعاود مسراها بها وتواصِلُ

ويقول ابن زمرك في المعنى ذاته في مخمسةٍ له[١]:

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله التلمساني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م)، الإحاطة في أخبار غرناطة (٤ج)، حققه محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م – ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ٤/٤٧٩؛ المقّري، شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٩٣٢م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٨ج)، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ٦/٤٥٩.

(٢) انظر المقطوعة رقم (١).

(٣) ابن منظور: لسان العرب.

(٤) المقطوعة رقم (٣).

(٥) انظر المقطوعة رقم (٤).

وقـــد قـــذفَتْها للعصـــيّ حواصِـــبُ قـد انتشـرَتْ فـي الجـوّ منهـا ذوائـبُ
تـــزاوَرَ منهـــا فـــي الفضـــاء حبائـــبُ فبينهمـــا مـــن قَبْـــل ذاكَ مَناسِـــبُ

لأنّهمـا في الـروض قبـلُ تولَّـدا

بنـــاتٌ لأُمٍ قـــد حيـــين بروحهـــا دعاهـا الهـوى مـن بعـد كـتْم لبَوْحِهـا
فأقلامهـــا تهـــوي لخـــطٍ بلَوْحهـــا فبـالأمس كانـت بعْـضَ أغصـانِ دوْحِهـا

فعادت إليها اليوم مـن بَعْدُ عُوَّدا

وهذه الصلة بين الهدف الخشبي وبين السهام التي تطلق عليه، كما بينها الشعراء تؤكد أن الهدف كان يؤخذ من ساق الشجرة بينما كانت السهام تؤخذ من الفروع الصغيرة، فالعلاقة بين الهدف والسهام علاقة الأصل بالفرع وعلاقة الأم بأبنائها، فلذلك صوّر الشعراء إقبال السهام على الهدف بأنه كإقبال الأبناء على أمهم، ولذلك يصف ابن فركون هذه العلاقة بقوله[٢]:

تحـــنُّ إليهـــا الـــذابلات فترتمـــي فروعـاً يرينـا الأصـل كيـف اجتـذابُها

وبعد أن يُسْتأصَلُ الهدفُ من سيقان الشجر محكمة الالتفاف والتماسك ملساء اللحـاء، كانـت تجعـل علـى شـكل أسـطوانة ذات طـول مناسـب، فيُـدَبَّبُ رأسُـها ليساعدها على الانطلاق عالياً في الفضاء، وكانت تجوَّفُ بحيث تبقى كالأسطوانة الفارغـة أو كالطبلـة، وكانـت الغايـة مـن تجويفهـا أولاً لتخفَّ حركتهـا فـي الفضـاء فتنطلق سريعاً، وثانياً لكـي تحطّ السهامُ في جوفها عندما تصيبها. ولعلّ وصف لسان الدين بن الخطيب لهذا الهدف بقوله "وطاعنةٍ نحر السُّكاك"[٣] يشير إلى

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٥).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٦).
(٣) المقطوعة رقم (١).

كونها مدببة الرأس، أما تجويفها فتدلُّ عليه أبياتٌ كثيرة منها قول لسان الدين بن الخطيب(١):

تلقَّـفُ حيّـات العصـيّ إذا هـوت　　فثعبانُهـا لا يسـتتمُّ لـه سـرْطُ

ولا يستطيع هذا الهدف أن يتلقف العصيّ الصغيرة لولا أنه مجوّف ومفتوحٌ من بعض جوانبه، ولعلنا نستطيع من هذا البيت ومن خلال العلاقة النسبية بين الثعبان والحيات الصغيرة التي يبتلعها أو يسرطها أن نتصور العلاقة النسبية في حجم الهدف الخشبي والعصيّ (السهام) التي تطلق عليه، وأطوالها.

ويستطيع الدارس أن يتصور حجم ذلك الهدف قياساً على ما يستطيع تجويفه من استيعاب للعصي التي تطلق عليه، ويظهر مدى استيعاب الهدف للعصي من خلال البيت السابق:

تلقَّـفُ حيّـات العصـيّ إذا هـوت　　فثعبانُهـا لا يسـتتمُّ لـه سَـرْطُ

ومعنى ذلك أنه مهما دخل إلى جوف ذلك الهدف من العصي فإنه لا يكاد يمتلئ(*) ويقول ابن زمرك(٢):

فخفَّـتْ إليهـا الـذابلاتُ كأنهـا　　طيـورٌ إلـى وكْـرٍ أطلْـنَ تهاويـا
حكـت شـبهاً للنحـل والنحـلُ حولـه　　عصـيٌّ إلـى مثـواه تهـوي عواليـا

فهو يشبّه الهدف تارة بوكر الطيور الذي تُتابعُ الطيورُ الدخولَ فيه، وتارة بخليّة النحل، والعصيّ حوله كالنحل حوله خليّته.

ويقول ابن زمرك من مقطوعة أخرى مصوراً دخول العصيّ في الهدف(٣):

---

(١) المقطوعة رقم (١).

(*) ربما كان القصد أيضاً أن السهام تنغرس في جسد الهدف دون أن تدخل فيه. فتبدو كالثعبان الذي يحاول ابتلاع الأفاعي فلا يستتم له ذلك.

(٢) انظر المقطوعة رقم (٣).

(٣) انظر المقطوعة رقم (٤).

وتتابعها هيفُ العصيّ كأنها   سهامٌ وعاها للرميّة نابلُ
تراوغها طوراً وطوراً تضيفُها   فسامٍ لأعلى مرتقاها ونازِلُ

ويقول ابن فركون يصف الهدف وهو يتلقف العصيّ[1]:

كأن طيوراً في ذرى الجو حوَّمَتْ   وثابَتْ لأوكارٍ بهن وثابها
تقيم إذا لاقى الأمانَ ارتياعها   ورتبما عنها ثناها ارتيابُها

أما فتحات ذلك التجويف فيخيل لي أنها كانت جانبية، وهذا ينسج مع تشبيه الهدف بوكر الطيور وخلّية النحل والثعبان، ويساعد هذا أيضاً على بقاء العصيّ أو السهام داخل الهدف في حالة إصابته، فأما إن كانت الفتحة في طرف الأسطوانة الخشبية لما تمكن الرماة من إطلاق سهامهم عليه، ولما استقرت داخل الهدف بل ترجع إلى الأرض بفعل الجاذبية. ويستفاد من تصوير الشعراء للهدف أن هذه الفتحات صغيرة كالثقوب.

ويفهم من المقطوعات التي بين أيدينا أنّ الهدفَ كان يُدبّبُ من رأسه وتثقب حول الرأس المدبّب ثقوبٌ تجعله أشبه بالبرج الصاعد إلى السماء، ويصفُ ابن زمرك هذا الرأس المدبّب بقوله[2]:

وحصنٍ منيع في ذراه قد ارتقى   فأبعد في الجوّ الفضاءِ المراقيا
كأنّ بروج الأفق غارت وقد رأت   بروج قصور شِدْتهنّ سواميا
فَأنشأتَ بُرْجاً صاعداً متنزلاً   يكون رسولاً بينهنّ مُداريا

ويقول من مقطوعة أخرى[3]:

وبرج منيف في ذراها قد ارتقى   لتُرْفَعَ منه للبروج الرسائلُ

ويقول من مقطوعة ثالثة[4]:

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٦).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٣).
(٣) انظر المقطوعة رقم (٤).
(٤) انظر المقطوعة رقم (٥).

ويا رُبَّ حصنٍ في ذراها قد اعتلى   أنارَتْ بُروجَ الأفْق في مظهر العُلا
بروج قصور شِدْتَها متطوّلا   فأنشأتَ برجاً صاعداً متنزلا

يكون رسولاً بينها متردّدا

ولعلّ جعل الهدف على صورة البرج كان المقصود منه أن ينسجم وبعض الأهداف المتوخاة من هذه الرياضة، وهي التدريبات العسكرية، لأنّ إصابة هذا الهدف وهو على شكل البرج يسهل على الفرسان إصابة أبراج الأعداء في أثناء الغزوات والمعارك(١).

ويظهر أن الثقوب التي كانت تحيط برأس الهدف كانت مصدراً لذلك الزمر الذي كان ينبعث من الهدف أثناء صعوده في الفضاء، ولذلك يصف ابن زمرك هذا الزمر بقوله(٢):

فلمّا أُبينَتْ عن قرارةِ أصلها   أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا
وعدَّتْ لقاءَ السُّحْبِ عيداً وموسماً   لذاك اغتدت بالزمر تلهي الغواديا
فأضحكت البرقَ الطروبَ خلالها   وباتَ لأكواس الدراري مُعاطيا

---

(١) يصف الشعراء هذا البرج وكأنه ليس من أصل الهدف، بل يضاف إليه بعد ذلك، ولا أستبعد أن يركب البرج على الهدف بعد إعداده للإطلاق.
(٢) انظر المقطوعة رقم (٣).

ويظهر أيضاً أنّ الهدف كان يضيّقُ من وسطه بحيث يبدو كأنّ خصراً. وقبل إطلاق الهدف إلى الفضاء كان يزيّن بالحلْي والقماش الملوّن، فيجعل له عند رأسه شبه التاج، وفي موضع العنق منه قماش، وفي موضع الخصر منه وشاح، وفي موضع القاعدة حليٌ كالخلخال، وبذلك فإنه كيفما تقلّب في الجوّ نتيجة ضربات السهام فإنه يظل رائق المنظر، وفي زينة الهدف يقول ابن زمرك(١):

تطورّ حالاتٍ أتى في ضروبها ... بأنواع حَلْي تستفزُّ الغوانيا
فحِجْلٌ(*) برجْلَيْها، وشاحٌ بخصرها ... وتاجٌ إذا ما حلَّ منها الأعاليا

ويقول في مقطوعة أخرى(٢):

تطور حالاتٍ أتى في جميعها ... بأوضاع حلْي وصفُهُ متغافلُ
فتاجٌ بأعلاها وشاحٌ بخصرها ... وفي الساق منه قد أديرت خلاخِلُ

ويقول في مقطع من مخمسةٍ له(٣):

وهل هي إلا هالةٌ حول بَدْرها ... يصوغ لها حَلْياً يليق بنحرها
تطوّر أنواعاً تشيدُ بفخرها ... فحِجْلٌ برجلَيْها بخصرها

وتاجٌ بأعلى رأسها قد تنضّدا

وقد أشار الشاعر ابن فركون إلى الحلي والقماش الذي يزين به الهدف فقال(٤):

وصاعدة في الجو ألقت ذيولها ... فراق بآفاق السحابِ انسحابها
إذا ثبتت راق العيونَ ثباتُها ... أو انقلبت راقَ النفوسَ انقلابُها

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٣).
(*) الحِجْل (بكسر الحاء وفتحها): الخلخال (لسان العرب).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٤).
(٣) انظر المقطوعة رقم (٥).
(٤) انظر المقطوعة رقم (٦).

فهي إذن بهذا الحلي وهذه الزينة تظلّ جميلة رائقة المنظر سواءً أكانت بوضعها الطبيعي أم انقلبت نتيجة ضربات السهام؛ وأن القماش يتبعها كالذيول.

إطلاق الهدف إلى الفضاء:

بعد أن كان الهدفُ يعدُّ على الصورة التي وصفناها ويُزَيَّن، كان يجري إطلاقه إلى الفضاء بحضور السلطان والمتفرجين والفرسان الذين يستعدون لإطلاق سهامهم نحوه. غير أننا لم نقف في الشعر أو غيره على وصفٍ للطريقة أو الأداة التي كان يطلق بها الهدف، أهو بالمنجنيق أم بآلة قذف خاصّة أم بالحبال والبكرات، إلا أنّ ما تقدمّه المقطوعات التي بين أيدينا من وصفٍ لإطلاق الهدف يقتصر على وصف السرعة الخاطفة لانطلاقه وإلى شقّه لعنان السماء إلى الدرجة التي يكاد معها يغيب عن الأبصار؛ فهذا ابن زمرك يصف انطلاق الهدف قائلاً[١]:

ومسافرٍ في الجوّ تحسبُ أنّه ... يرقى إلى أوج السماءِ بسُلّم

ويقول[٢]:

وطامحةٍ في الجوّ غير مطالةٍ ... يردُّ مداها الطرفَ أحْسَرَ عانيا
تمدُّ لها الجوزاء كفَّ مصافح ... ويدنو لها بدْرُ السماء مناجيا

ولا عَجَبٌ أنْ فاتت الشهب بالعلا ... وأنْ جاوزَتْ منها المدى المتناهيا
فبيْنَ يديْ مثواكَ قامت لخدمةٍ ... ومَنْ خَدَم الأعلى استفادَ المعاليا

ويقول[٣]:

وصاعدة في الجوّ ملءَ عنانها ... تُسامِتُ أعنانَ السَّما وتُطاولُ
طلعْتَ تحيّي البدْرَ منها بصعدةٍ ... عليها لواءُ الصُّبْح في الأفْق ماثِلُ

ويقول[٤]:

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٢).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٣).
(٣) انظر المقطوعة رقم (٤).
(٤) انظر المقطوعة رقم (٥).

وذاهبـــةٍ فـــي الجـــوّ مـــلءَ عنانهـــا وقـــد لفّعَتْهـــا السُّـــحْبُ بُـــرْدَ عِنَانهـــا
يفـوتُ ارتـدادَ الطـرْف لمـحُ عيانهـا وختّمـــت الجـــوزاء سَبْـــط بنانِهـــا

وصاغت لها حليُ النجوم مقيّدا

أراهـــا عمـــودُ الصُّـــبْح عُلْـــوَ المصـــاعِدِ وأوهمهـــا قُـــرْبَ المـــدى المتباعِـــدِ

ويقول ابن فركون[1]:

وصـاعدةٍ فـي الجـوّ ألقَـتْ ذيولهـا فـراقَ بآفـاقِ السـحابِ أنسـحابُها

ويقول ابن الحاجّ النميري[2]:

وقـد صَـعَدَتْ فـي الجـوّ آيـةُ طبلـةٍ تحـاكي عمـود الفجـر أسْـفَرَ للسَّـفْر

ويظهر أنّه بعد انطلاق الهدف في الفضاء بهذه السرعة وهذا العلوّ الذي يصفه الشعراء، تعود فتسبح في الفضاء بشكل منساب، ولهذا وصفها عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب بقوله[3]:

وســـاقيةِ العمـــادِ إذا أطلّـــت إلـــى الأدواح تنســـابُ انســـيابا

ونجد إشارة في تخميس ابن زمرك قد تشير إلى ما يمكن أن يكون وسيلة لإطلاق الهدف إلى الفضاء، إذ يقول في وصف الهدف[4]:

أراهـا عمـودُ الصُّـبْح عُلْـوَ المصـاعِدِ وأوهمهـا قـرب المـدى المتباعِـدِ
ففاتتـه سـبقاً فـي مجـال الرواعـد .....

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٦).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٧).
(٣) انظر المقطوعة رقم (٨).
(٤) انظر المقطوعة رقم (٥).

فهل توحي كلمة الرواعد في هذا السياق، باستخدام المتفجرات أو الأسهم النارية في إطلاق الهدف؟! لا سيما أنّ بني الأحمر قد عرفوا البارود واستخدموا المدافع منذ سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م في فتح حصن أشكر[١].

أما انسياب الهدف في الفضاء بعد نفاد حدّة انطلاقه، فربّما يكون مردّه إلى قطع القماش التي يزيّن بها، والتي قد تشكل له ما يشبه المظلّة أو المنطاد، ولذلك نجد لسان الدين بن الخطيب يشبه هذا الهدف بسفينة الفضاء حيث يقول في وصفها مخاطباً سلطانه[٢]:

أزرْتَ بها بحر الفضاءِ سفينةً على الجوّ لا الجوديّ كان لها حطُّ

ومما مر من الأبيات التي تصف صعود الهدف إلى الفضاء يتبين أنه كان يثبت أحياناً في الفضاء أي يمشي بطريقة مستقرة منسابة، مما يدلّ على أن طريقة صناعة هذا الهدف مع الإضافات التي تلحق به كانت تمكنه من الاستقرار في الفضاء، مما يسهل مهمة الرماة الذين يطلقون الأسهم نحوه.

الرُّماة/ اللاعبون:

بعد أن كان الهدف يندفع إلى الفضاء كان الفرسان والرماة تتبعه بالعصيّ (السهام) بكثرة، بحيث تنهمر عليه العصيّ بكثافة تريد إصابته والدخول إلى جوفه، فبعض العصيّ تخترقه وتنزل في جوفه من فتحاته المختلفة وبعضها يخطئه فيعود إلى الأرض، وكلما رام ذلك الهدفُ هبوطاً حالت السهام دون الإذن له بذلك، وأبقته قائماً في الجو. وفي ذلك يقول ابن زمرك في وصف الهدف عندما يحاول الهبوط إلى الأرض[٣]:

رامَ اسْتراقَ السَّمْع وهو مُمَنّع فأصيبَ من قضب العصيّ بأسْهُمِ
رجمثْهُ من شهبِ النصال حواصبٌ لولا تعرّضُهُ لها لم يُرْجَمِ

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، أعدها وحققها: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣، ص٧٨ (من قصيدة للشاعر محمد بن شقرال).

(٢) انظر المقطوعة رقم (١).

(٣) انظر المقطوعة رقم (٢).

ويقول[١]:

وقد أعْرَبَتْ بالرَّفْع عن طيبِ فخرِها متى نصبتها في الفضاءِ العواملُ

(والشاعر يستخدم هنا المصطلحات النحوية بقصد التورية في وصف ارتفاع الهدف في الجو وحيلولة السهام دون هبوطه إلى الأرض، فالعوامل في هذا البيت هي من جهة العوامل النحوية ومن جهة أخرى السهام).

ومثلما كانت بعض الرماة تصيب الهدف كان بعضها الآخر يخطئه، يقول ابن زمرك في وصف السهام[٢]:

فمن مثبتٍ منها الرميّة مدركٍ ومن طائشٍ في الجوّ حلَّقَ وانيا

ويقول في وصف السهام[٣]:

ترواغها طوْراً وطوْراً تضيفُها فسامٍ لأعلى مرتقاها ونازلُ

ويفهم من المقطوعات التي تصف هذه اللعبة أن الرماة كان يطلقون الأسهم على الهدف وهم ركوبٌ على الخيل، يدلُّ على ذلك قول عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب[٤]:

تحفُّ بها خيولُ القوم منّا فَتُرْسِلُ نحوها الجُرْدَ العِرابا

ويقول ابن الحاج النميري[٥]:

وقد جالَ نقْعُ الخيل في جنباتها كما جالَ في الأفكار معنًى من الشِعْرِ

ولكنّ ذلك لا ينفي وجود رماةٍ غير ركوب يطلقون العصيّ على الهدف، غير أن استعمال الخيل في هذه الرياضة قد يكون لكون هذه الرياضة لوناً من ألوان

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٤).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٣).
(٣) انظر المقطوعة رقم (٤).
(٤) انظر المقطوعة رقم (٨).
(٥) انظر المقطوعة رقم (٧).

الفروسية، وربما للتمكن من إصابة الهدف الذي ينطلق بسرعة كبيرة لا تدركها إلا الخيل.

العصيّ/ السّهام:

أما العصيُّ أو السهام التي كان يطلقها الفرسان على الهدف، فقد ورد وصفها في عدة أبيات، ويستطيع الدارس من مجمل هذه الصفات أن يتبين أنها عصيّ رقيقة قصيرة ذات رأس معدني مدبب؛ فمما قاله لسان الدين بن الخطيب في وصف الهدف وهو يتلقف العصيّ(١):

تلقّف حيّاتِ العصيّ إذا هوت فثعبانها لا يستتمُّ له سرْط

ويفهم من هذه الصورة أن العصيّ قريبة الشبه بالحيّات الصغيرة من جهة الطول والسمك والرأس المدبّب، وأن الهدف قريب الشبه بالثعبان الضخم الذي يبتلع الحيّات. وفي لسان العرب الثعبان: الحيّة الضخم الطويل، الذكر خاصة، وهو من أعظم الحيّات(٢). ويبدو أنّ الشاعر قد تمثل عصا سيّدنا موسى وهي تتلقف الأفاعي، وذلك في قوله تعالى: **﴿وأوحَيْنا إلى موسى أنْ ألْق عصاكَ فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون﴾**(٣)، وقوله تعالى: **﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتُم مُلْقون، فألقوْا حبالهم وعصيَّهم وقالوا بعزّة فرعونَ إنّا لنحنُ الغالبون، فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون﴾**(٤).

ولعل لهذا البيت صلة بقول بعضهم في الرماح: "خُلِقَتْ كالأراقم، لثغر الحلاقم"(٥).

ومما قاله ابن زمرك في وصف الهدف والعصيّ معاً(٦):

---

(١) انظر المقطوعة رقم (١).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة: ثعب.

(٣) الأعراف: آية (١١٧).

(٤) الشعراء: آية (٤٣- ٤٥).

(٥) ابن هذيل، عليّ بن عبدالرحمن الأندلسي (ق٨هـ/ ق١٤م)، حلية الفرسان وشعار الشجعان تحقيق وتعليق: محمد عبدالغني حسن، دار المعارف، القاهرة، ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م ص٢٠٢.

(٦) انظر المقطوعة رقم (٢).

رام اســتراقَ الســمْع وهــو مُمَنَّــعٌ فأصـيبَ مـن قُضْـب العصـيّ بأسْـهُمِ
رجمته من شُهْبِ النصالِ حواصبٌ لـــولا تعرُّضُـــهُ لهـــا لـــم يُـــرْجَمِ

وصفة العصيّ في البيت الأول أنها قضبان خشبية ولكنها مدببة الرأس كالأسهم، وفي البيت الثاني أنها نصال، والنصال لا تكون إلا معدنية، والعصيُّ إذا كانت ذات نصال في رأسها، فإنها تصبح رماحاً، وشبّهها في البيت الثاني بالشهب لأن نصالها لامعة.

وفي موضع آخر يصف ابن زمرك هذه العصيّ بالذابلات حيث يقول[١]:

فخفّــت إليهــا الــذابلاتُ كأنّهــا طيــورٌ إلــى وكْــر أطلْــنَ تهاويــا

والذابلاتُ جمع ذابل وهو الرمح ذو العصا الليّنة. وقد استعملت صفة الذبلات للعصيّ في أكثر من موضع من المقطوعات التي بين أيدينا[٢]. وهي من أفضل صفات الرمح[٣].

وفي مقطوعة أخرى يصف ابن زمرك العصيّ بالصَّعْدة، حيث يقول[٤]:

طلعْـتَ تحيّـي البـدْرَ منهـا بصـعدةٍ عليها لـواءُ الصُّبْح فـي الأفُق ماثلُ
وقد أعرِبْت بـالرفع عن طيبِ فخرها متـى نصـبتها فـي الفَضـاء العوامِـلُ

والصعدة في البيت الأول هي عصا الرمح إذا نبتت مستوية ولم تحتج إلى تثقيف[٥]. وفي البيت الثاني استخدم كلمة "عوامل" في وصف العصيّ التي أبقت على الهدف منتصباً في الجو، والعوامل جمع عامل وهو رأس الرمح إلى قدْر الثلث منه[٦].

ويقول ابن زمرك أيضاً[٧]:

---

(١) انظر المقطوعة رقم (٣).
(٢) انظر المقطوعتين ٥، ٦.
(٣) ابن هذيل، حلية الفرسان ص ٢٠٣.
(٤) انظر المقطوعة رقم (٤).
(٥) ابن هذيل، حلية الفرسان ص ٢٠٣.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) انظر المقطوعة رقم (٤).

وتنتابهـــا هيـــفُ العصـــيّ كأنّهـــا سِـــهامٌ وعاهـــا للرميّـــة نابـــلُ

ويفهم من هذا البيت، في صفة تلك العصيّ أنها ليست من النوع الغليظ، بل من النوع الرقيق وأنها رقيقة رقة السهام التي يقذفها الرماة بالقوس.

وعلى ذلك فان هذه العصيّ المستخدمة في قذف الهدف هي قضبان رشيقة رقيقة شبيهة بالسهام لها رؤوس مدببة تساعدها على اختراق الهدف. ولعلّ النوع المستخدم في هذه الرياضة هو ما يُعْرَف بالمزراق الذي "يُرمى به للطافة عصاه، وقد يكون سنانه مربعاً لطيفاً لخرْق الدروع وشبه ذلك"(١). وعندما يصف لسان الدين بن الخطيب سلاح الجمهور الغرناطي في كتابيه "الإحاطة" و"اللمحة البدرية" يقول: وسلاحُ جمهورهم العصيُّ الطويلة المثنّاةُ بعصيّ صغار ذوات عُرًى في أوساطها، تدفَعُ بالأنامل عند قذفها، تسمى بالأمداس"(٢). وربما تكون هنالك صلة بين هذه العصي الصغار والعصي المستخدمة في رياضة الطبلة.

ورقة هذه العصيّ وقصرها وحدّة رؤوسها ولمعانها هو الذي كان يساعدها على الانطلاق بسرعة البرق في الجوّ واختراق هدفها، ولذلك يصفها ابن الحاج النميري بقوله(٣):

وأنحـــوْا عليهـــا بالعصـــيّ كأنّهـــا بروقٌ ولكنْ بالبروق غَدَتْ تُزْري

ولكثافة هذه العصيّ حول الهدف، ممّا يدلّ على كثرة اللاعبين، فقد شبّهها الشعراء بتشبيهات عدة، فتارة شبهوها بالطيور وتارة بالنحل وتارة بالأفاعي، وهاهو عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب يشبهها بالفراش حول المصباح، قائلاً(٤):

تحـــومُ بهـــا العصـــيُّ فـــراشَ ليـــل تـــروم بســـمعه منـــه اقترابـــا

الفوز والخسارة:

---

(١) ابن هذيل، حلية الفرسان ص ٢٠٢.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة ١٣٦/١- ١٣٧؛ اللمحة البدْرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص ٣٩.

(٣) انظر المقطوعة رقم (٧).

(٤) انظر المقطوعة رقم (٨).

أما أسس الفوز والخسارة في هذه اللعبة، فيمكنُ أن نستأنس في معرفتها بالتصور العام لهذه اللعبة فضلاً عن بعض الإشارات الواردة في مقطوعة ابن الحاج النميري[١] في وصف هذه اللعبة. ولعلّ إصابة الهدف بالسهام ودخولها في جوفه تعدّ مقياساً للفوز وأنّ عدم إصابة الهدف وابتعاد العصيّ عنه يعدُّ مقياساً لخسران جولة اللعب. ونجد ابن الحاجّ النميري في أبياته يقسم النتيجة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: إصابة الهدف وكسره، وبكسره تدخل العصا إلى جوف الهدف، ويعدّ ذلك فوزاً عظيماً، فيقول في وصف الهدف[٢]:

مـن الطـبلات الـلاءِ مـا زال كسـرها لـدى البطـل الأحمـى يعدُّ مـن الجبْرِ

والثاني: إصابة الهدف دون كسره ودون دخول السهم في جوفه، ويعدُّ ذلك نقطة لصالح الرامي، لكنها ليست في المستوى الأول، حيث يقول[٣]:

وضـــاربُها يـــومَ الوفـــودِ عقوقـــه وإنْ كـان لا يخفـى يُعَـدُّ مـن البـر

وأما الثالث: فهو عدم كسر الهدف وعدم إصابته، وفي هذه الحالة يبدو الهدف وكأنه يزري بالعصيّ التي ترمى عليه، فيقول ابن الحاج[٤]:

وأنحـــوْا عليهـــا بالعصـــيّ كأنّهـــا بـروقٌ ولكنْ بـالبروق غَـدَتْ تُزْري

ولا شك أن إخفاق الرامي في إصابة الهدف هو دليلٌ على خسرانه الجولة، فقد اتضح لنا من خلال الأوصاف المذكورة لهذه اللعبة أن السبيل إلى إبقاء الهدف سابحاً في الفضاء دون هبوطه على الأرض هو الاستمرار في إصابته بالسهام، ومتى أخفقت السهام في إصابته هبط على الأرض ليعلن خسارة الرماة في تلك الجولة.

---

(١) المقطوعة رقم (٧).
(٢) انظر المقطوعة رقم (٧).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.

اسم هذه الرياضة:

اختلفت المصادر في اسم هذه الرياضة، فبعضها تسميها "الطّلبة"، وبعضها الآخر يسميها "الطّبلة"؛ فقد أطلق إسماعيل بن يوسف بن الأحمر على الهدف الذي يقذَفُ بالعصيّ اسم "الطلبة"، وذلك في تقديمه لقصيدة لسان الدين بن الخطيب[١]، حيث يقول عن تلك القصيدة: "وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها، والطلبة التي نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصيّ إليها ..."[٢] وفي تقديمه لقصيدة ابن زمرك[٣] يقول إسماعيل بن الأحمر: إنّ الشاعر قد "أجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع"[٤].

أما لسان الدين بن الخطيب فإنه يطلق عليها اسم الطبلة، وذلك في تقديمه لقصيدته السابقة[٥] حيث يقول مشيراً إلى سلطانه: إنه "استركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجوّ المسمى بالطبلة"[٦].

وفي رأيي أنّ الاسم الصحيح لها هو "الطّبْلة" وذلك لورودها في الشعر على هذه الصورة، فقد ذكرها ابن الحاجّ النميري في مقطوعته حيث يقول[٧]:

وقد صعدت في الجوّ آية طبلةٍ ... إلخ

ويقول[٨]:

من الطبلات اللاء ما زال كسرها لدى البطل الأحمى يُعَدُّ من الجَبْرِ

---

(١) انظر المقطوعة رقم (١).
(٢) نفسه، وانظر: المقري، نفح الطيب ٤٥٩/٦- ٤٦٠.
(٣) انظر المقطوعة رقم (٢).
(٤) المقري، نفح الطيب ١٨٤/٧؛ أزهار الرياض ٦٠/٢.
(٥) المقطوعة رقم (١).
(٦) ابن الخطيب، الإحاطة ٤٧٩/٤.
(٧) انظر المقطوعة رقم (٧).
(٨) نفسه.

ولعلّ سبب الخلط في التسمية هو تقارب صورة الاسمين، واحتمال وقوع التصحيف عند إسماعيل بن يوسف بن الأحمر أو عند المقّري الذي نقل رواية إسماعيل بن الأحمر. وربما يكون سببُ الاختلاف في الاسم أنّ كلا الاسمين ينطبق على هذه الرياضة؛ فتسميتها بالطلبة منبثق من المعنى اللغوي للطلبة، وهو: ما طلبتَهُ من شيء[1]. والهدفُ في هذه اللعبة كان يُطلبُ بالعصيّ. وأما تسميتها بالطبلة فمنبثقٌ من صفتها، فهي كالطبلة في كونها قطعة خشبية مجوفة يخرج لها صوت كصوت الطبل حين تظفر بها العصيّ، ولستُ أستبعد شيوع الاسمين معاً بين أهل غرناطة، وأن يكون أحدهما قد أصابه القلب فتقدم أحد الحرفين (الباء واللام) على الآخر، كما يحدث كثيراً عند عوام الناس في كثير من الأسماء، وشاع الاسمان على هذا النحو، وساعد في شيوعهما مناسبة الاسمين للمسمى دون إخلال بصفته في الحالين.

التأثر والتأثير:

لم تتعرّض المصادر الأندلسية التي أُلفت قبل عصر بني الأحمر إلى هذه الرياضة، على الرغم من أن ألعاب الخيل والفروسية كانت الرياضة المفضلة لدى المسلمين في الأندلس وغيرها عبر عصور التاريخ الإسلامي لغايات الحرب، كما هو الحال عند الرومان الذين وقف الأندلسيون على تراثهم في الأندلس، فقد كانت الرياضة العسكرية تشكل جانباً أساسياً من برنامج تربية الشباب وكانت تتضمن تدريبه على الجري والوثب والسباحة ورمي الرمح والمبارزة، وكانت الفرسان تتدرب على القوس والنشّاب والركوب[2].

---

(١) لسان العرب، مادة طلب.

(٢) ديوبولد ب. ڤان دالين، إلمر، د. ميشل، بروس ل. بنيت، تاريخ التربية البدنية، ترجمة الدكتور محمد عبدالخالق علام والدكتور محمد محمود فضالي، دار المعرفة، القاهرة، ص١٣٧، ١٤٠، ١٤٩، ١٥٦.

وفي رأيي أن هذه الرياضة عند الأندلسيين كانت نتيجة طبيعية لانتشار ألعاب الفروسية وتطورها والتعرف إلى قوانين الفروسية عند الأوروبيين، والمتتبع لتاريخ الرياضة عند المسلمين يجد صوراً مشابهة لرياضة الطبلة عند المماليك، ومن ذلك رياضة "القبق"، وهي عبارة عن خشبة ينصب في أعلاها جسمٌ أشبه بالقرعة العسلية، وكان المماليك يجعلون في وسطها طير حمام، ويسوقون ويرمونها في أيام المواسم والأعياد(١).

والذي يبدو لي أن رياضة "الطبلة" عند الأندلسيين ورياضة "القبق" عند المماليك هما من الأشكال المتقدمة لرياضة كرة السلة.

ملاحظات ختامية:

رياضة "الطبلة" عند الأندلسيين هي إحدى ألعاب الفروسية، كان من غاياتها التدرّب على الرماية من أجل الاستعداد للجهاد، شأنها في ذلك شأن رياضة الفروسية بمختلف أشكالها، وقد أشار ابن الحاجّ النميري إلى هذه الغاية من رياضة الطبلة وعناية سلطانه بها حيث يقول(٢):

فذلك منه للجهاد تدرُّبٌ سيسقي به الحزْبَ الذي دان بالكُفْرِ

ويقول ابن زمرك إن سلطانه قد كلّف الأدباء وصف هذه الرياضة وغيرها من الألعاب التي جرت في أحد احتفالات السلطان(٣):

لمولًى تولاّه وأحكم رصفه وكلّف أربابَ البلاغةِ وَصْفَهُ

غير أن سلاطين غرناطة كانوا يرون أن وصف هذه الرياضة يليق بشعراء دون شعراء آخرين، فيحدثنا لسان الدين بن الخطيب أنّ سلطانه نهاه عن الهبوط إلى درجة وصف المناسبات التي وصف بها لعبة الطبلة، فعندما أورد قصيدته التي تتضمن وصفاً لهذه اللعبة قال: "وهي آخر الشعر في هذا الغرض، لخجل السلطان من تنزُّلي إلى ذلك وتنزيهي(٤) عنه تجلّة، أجلّه الله وكرّمه"(١).

---

(١) عبدالعزيز، دكتور نبيل محمد، الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦، ص٦٦.

(٢) انظر المقطوعة رقم (٧).

(٣) انظر المقطوعة رقم (٥).

(٤) في الإحاطة: وترفيهي، وربما كانت مصحفة.

وفي ظني أنه لولا تحرّج السلطان من استمرار ابن الخطيب في وصف هذه الرياضة لربما قدّم لنا ابن الخطيب تفصيلات أكثر عنها. غير أنّ القصائد التي عرضت لهذه الرياضة استطاعت أن تقدّم لنا مجتمعة بعض ملامح هذه الرياضة.

ويلاحظ في جميع المقطوعات التي وصفت هذه الرياضة أنّ أيّاً منها لم يكن مستقلاً منفرداً بوصف هذه الرياضة بل جاءت كلّ منها ضمن قصيدة مطوّلة في وصف جملة ألعاب احتفالية. ولم يستطع أيّ شاعر أن يعطي وصفاً دقيقاً لهذه الرياضة بل انصرف هؤلاء الشعراء إلى المبالغات والتشبيهات المختلفة التي تجعل التمييز بين الحقيقة والخيال أمراً عسيراً، ولذلك كلّ مقطوعة من هذه المقطوعات – على حدة - وكأنها لغز. ويلاحظ أيضاً أنّ جميع هذه المقطوعات جاءت متشابهة ومتأثراً بعضها ببعض في الألفاظ والصور والتشبيهات، مما لا يعطي لأي منها خصوصية بارزة في توضيح صورة هذه الرياضة أو حتى في تمييز أسلوب شاعر عن غيره، هذا فضلاً عن أن هذه المقطوعات تتسم بالتكلّف والخلّو من الحرارة والعاطفة والطبع كما يلاحظ أن جميع المقطوعات التي تصف هذه الرياضة تنتمي إلى عصر واحد وهو عصر بني الأحمر ولا سيما بعد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

بقي أن أقول إنّ هذه الرياضة ووصف الشعراء الأندلسيين لها تؤكد أن حلم أهل الأندلس باختراق الفضاء لم يبرح الخيال الأندلسي منذ أيام عباس بن فرناس الذي خاطر بمحاولة الطيران في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حتى عصر بني الأحمر حيث يتبارى الشعراء في وصف المسافات التي أوغلت بها الطبلة في مدارج السماء، وحيث جهز الأندلسيون هذه "الطبلة" بكل ما يمكّنها من اختراق الفضاء لكي[٢]:

تمدّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافحٍ ويدنو لها بْدرُ السماءِ مناجيا

---

(١) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة ٤/٤٧٩.

(٢) انظر المقطوعة رقم (٣).

ملحق
المقطوعات الشعرية التي وصفت الطبلة
(١)

يقدّم لسانُ الدين بن الخطيب[١] لإحدى قصائده بقوله: "وقولي في امتداح سلطاني لما احتفل لإعذار ولده، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجوّ المسمى بالطّبلة ... وهي آخر الشعر في هذا الغرض لخجل السلطان من تنزّلي إلى ذلك، وترفيهي عنه تجلّة، أجلّه الله وكرمه لديه:

شَحَطَتْ وفودُ الليل بانَ به الوخْطُ وعسكَرَهُ الزنجيُّ همَّ به القبط[٢]

إلى أن يصل إلى وصف الطبلة فيقول[٣]:

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب (٧١٣هـ - ٧٧٦هـ/ ١٣١٣- ١٣٧٥م) وزير بني الأحمر في غرناطة وكاتبهم وشاعرهم الذي وصفه إسماعيل بن الأحمر بأنه "كاتب الأرض إلى يوم العرض". تولّى الكتابة عن السلطان أبي الحجّاج يوسف الأول والسلطان الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر، وتولى الوزارة لهما، وعندما خلع سلطانه الغني بالله سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م ظل لسانُ الدين معه إلى أن عاد إلى ملكه بعد سنتين من خلعه، وصار لابن الخطيب شأن عظيم، حسده له خصومه، فأوقعوا به لدى السلطان، فقتله سلطانه في المغرب سنة ٧٧٦هـ. ولابن الخطيب مؤلفات ورسائل وأشعار زادت على الستين مؤلفاً.
(ابن الخطيب، الإحاطة ٤/٤٣٨- ٦٤٠؛ المقري، نفح الطيب (الأجزاء الخامس والسادس والسابع)، ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٤٢- ٢٩٢؛ ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكاتب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري – القاهرة، ١٩٧٩ ص ١٦٧-٢٣١).

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة ٤/٤٧٩؛ المقري، نفح الطيب ٦/٤٥٩-٤٦٠ (وفي نفح الطيب: الطلبة).

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة ٤/٤٨٢؛ المقري، نفح الطيب ٦/٤٦٢.

وطاعنـةٍ نَحْـرَ السُّـكاكِ[1] أعانهـا | علـى الكوْنِ عرْقٌ واشجٌ ولحًـى سَبْطُ
تَلَقَّـفُ حيّـاتِ العصـيّ إذا هَـوَتْ | فثعبانُهـا لا يَسـتتمُّ لـه[2] سَـرْطُ
أزَرْتَ بهـا بحـر الهـواء سـفينةً | على الجو[3] لا الجوديّ كان لها حطُّ

(٢)

قدّم الأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر في كتابه "البقية والمدرك من كلام ابن زمرك"[4] لإحدى قصائد ابن زمرك[5] بقوله: "ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المختص بعمّينا السيدين الأميرين سعد ونصر، رحمة الله عليهما، وأجاد في وصف الجُنْد والجُرْد والطّبلة وغرائب الأوضاع[6]:

ألِلمحـةِ مـن بـارقٍ متبسّـمِ | أرسـلْتَهُ دمعـاً تضـرَّجَ بالـدمِ

---

(١) الجو (لسان العرب).
(٢) النفح: يستقيم.
(٣) الإحاطة: الجود.
(٤) ما زال هذا الكتاب في عداد الكتب المفقودة، وقد نقل المقري في أزهار الرياض أجزاء كبيرة منه.
(٥) أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد الصريحي، ولد بغرناطة وتعلّم على شيوخها ومنهم ابن الخطيب سنة ٧٣٣هـ، وتولّى الكتابة لسلاطين غرناطة ولا سيّما محمد الخامس الغني بالله المتوفى سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، وابنه يوسف الثاني، وكتب عن السلطان أبي سالم المريني في المغرب، برع في النظم وخاصة في شعر الأعياد والمناسبات، ويقال إنه وشى بأستاذه لسان الدين بن الخطيب، وتوفي ابن زمرك قتيلاً بعد سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م (انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ٢/٣٠٠- ٣١٤؛ الكتيبة الكامنة ٢٨٢- ٢٨٨؛ ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان ٣٢٦- ٣٢٩؛ المقري، نفح الطيب ٧٥/٦- ٨٠، ١٤٥/٧- ٢٨٠؛ أزهار الرياض ٧/٢- ٢٠٦؛ وخصه الدكتور أحمد سليم الحمصي بكتاب عنوانه: ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار الإيمان – طرابلس لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥؛ وخصه إميليو غارسيا غومس بفصل خاص من كتابه مع شعراء الأندلس والمتنبي بعنوان: ابن زمرك شاعر الحمراء، ص٢١٩-٣٤١).
(٦) المقري، أزهار الرياض ٦٠/٢؛ نفح الطيب ١٨٤/٧.

ويقول في وصف "الطَّلبة"[١]:

ومســـافر فـــي الجـــوّ تحســـبُ أنّـــه يرقـــى إلـــى أوج الســـماءِ بسُـــلَّمِ
رام اســـتراقَ السَّـــمْع وهـــو ممنَّـــعٌ فأصيبَ من قُضْبِ العصيّ بأسهمِ
رَجَمَتْـهُ مـن شُـهبِ النصَـال حواصـبٌ[٢] لـــولا تعرّضُـــه لهـــا لـــم يُـــرْجَمِ

(٣)

يقـول ابـن زمـرك مـن قصـيدة مطوّلـة فـي وصـف بعـض الاحتفـالات، مطلعها[٣]:

سـلْ الأفـق بـالزُّهْرِ الكواكـبِ حاليـا فـــإنّي قـــد أودعتُـــهُ شـــرْحَ حاليـــا

يقول منها في وصف الطّبلة[٤]:

وطامحــةٍ فــي الجـوّ غيـر مُطالــةٍ يــردُّ مــداها الطـرْفَ أحْسَـرَ عانيـا
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مُصافح(٥) ويـدنو لهـا بـدْرُ السـماءِ مُناجيـا
ولا عَجَـبٌ أنْ فاتـت الشُّـهْبَ بـالعُلا وأنْ جـاوَزَتْ منهـا المـدى المتناهيـا

(١) المقري، أزهار الرياض ٦٥/٢؛ نفح الطيب ١٨٧/٧.
(٢) يذكر محقق النفح أن هذه الكلمة وردت في إحدى النسخ "قواضب" ويعلّق قائلاً: "ولها وجه، لأنه يتحدث عن الجواد، فالقواضب السيوف وهي ترجمه أي تتعرض له".
(٣) المقري، أزهار الرياض ٦٥/٢؛ نفح الطيب ١٨٨/٧.
(٤) المقري، أزهار الرياض ٧٢/٢؛ نفح الطيب ١٩٣/٧- ١٩٤.
(٥) في النفح: مُسارع.

فبـيْنَ يـديْ مثـواك قامـت لخدمـةٍ وَمَـنْ خَـدَم الأعلـى اسـتفادَ المعاليـا
وشــاهدُ ذا أنّـــي ببابـــك واقـــفٌ وقـد حَسَـدَتْ زُهْـر النجـوم مكانيـا
وقَـدْ أُرْضـعَتْ ثـديَ الغمـائم قبلهـا بحجــر ريــاض كــنَّ فيــه نواشــيا
فلمــا أُبينَــتْ عــن قــرارة أصــلها أرادت إلـــى مرقـــى الغمـــام تعاليـــا
وعدَّتْ لقاءَ السُّحْبِ عيداً وموسماً لـذاك اغتـدتْ بـالزمْر تُلهـي الغواديـا
فأضـحكت البـرْقَ الطـروبَ خلالهـا وبـات(١) لأكـواس الـدراريَ مُعاطيـا
رأتْ نفَسـها طالـت فظنَّـتْ بأنّهـا تفـوتُ علـى رغـم اللحـاق المراميـا
فخفَّـــتْ إليهـــا الـــذابلاتُ كأنّهـــا طيـــورٌ إلـــى وكـــر أطلْـــنَ تهاويـــا
حكـت شَـبَهاً للنحـل والنحـلُ حولـه عصـــيٌّ إلـــى مثـــواه تهـــوي عواليـــا
فمـن مُثْبِـتٍ منهـا الرمّيـة مُـدْركٍ ومِـنْ طـائش فـي الجّـو حلّـقَ وانيـا
وحصـنٍ منيـعٍ فـي ذراه قـد ارتقـى فأبْعَـدَ فـي الجّـو الفضـاءِ المراقيـا
كـأنَّ بـروجَ الأفـق غـارت وقـد رأتْ بـــروجَ قصـــورٍ شـــدتهنّ ســـواميا
فأنشـــأْتَ بُرْجـــاً صـــاعداً متنـــزّلاً يكـــون رســـولاً بيـــنهنَّ مُـــداريا
تطـوَّرَ حـالاتٍ أتـى فـي ضـروبها بـــأنواع حلْـــي تســـتفزُّ الغوانيـــا
فحِجْـلٌ برجليْهـا، وشـاحٌ بخصـرها وتـــاجٌ إذا مـــا حـــلَّ منهـــا الأعاليـــا
ومـا هـو إلا طيْـرُ سَـعْدٍ بـذِرْوةٍ غدا زاجراً من أشهب الصُّبْح بازيا

(١) في النفح: وباتت.

(٤)

من قصيدة لابن زمرك في وصف إحدى الاحتفالات التي في عهد السلطان يوسف الثاني، ومطلعها[١]:

نجـــومٌ أمـــدَّتْها بـــدورٌ كوامِـــلُ لهـا النـور مـن شـمس الخلافـةِ شـاملُ

ومنها (في وصف الطلبة)[٢]:

وصـاعدةٌ فـي الجّـو مـلء عنانهـا تُسـامِتُ أعْنـانَ السَّـما وتُطـاولُ
طلعْتَ تحيّـي البـدْرَ منهـا بصـعدةٍ[٣] عليْهـا لـواءُ الصُّـبْح فـي الأفْـق ماثِـلُ
وقد أعْرَبَتْ بـالرفع عن طيبِ فخرها متـى نصـبتْها فـي الفضـاء العَوامِـلُ
يمـدُّ لهـا الكـفُّ الخضـيبُ بسـاعد ويشكي السماكَ الأعْزَلَ الرمح عامِلُ
وتنتابُهـا هيـف العصـيّ كأنّهـا سـهامٌ وعاهـا للرميّـةِ نابـلُ
تراوغهـا طـوْراً وطـوْراً تضـيفُها فسـامٍ لأعلـى مرتقاهـا ونـازلُ
وبالأمْس كانت بعْضَ أغصانِ دَوْحِها فنقّلهـا عنهـا علـى الـرغم ناقِـلُ
فحنَّـتْ إلـى أوطانهـا وتسـابقَتْ تعـاودُ مسـراها بهـا وتواصِـلُ
وبُـرْجٌ منيفٌ فـي ذراهـا قـد ارتقـى لتُرْفَـعَ منـه للبـروج الرسـائِلُ
تطـوَّرَ حـالات أتـى فـي جميعهـا بأوضـاع حلْـيٍ وصـفُه متغافِـلُ
فتـاجٌ بأعلاهـا، وشـاحٌ بخصـرها وفـي السـاقِ منـه قـد أديـرت خلاخِـلُ
ومـا هـو إلا قـائمٌ مـدَّ مُلْكَـهُ إلـى اللّـه فـي البقيـا لمـا صـدَّ سـائلُ

(٥)

يقول ابن زمرك في تخميس له يصف فيه صنيعاً لبعض أمراء بني الأحمر، مطلعه[٤]:

أرقْـتُ لبـرْقٍ مثـل جفنـي سـاهرا يـنظّم مـن قطْـر الغمـام جـواهرا

---

(١) المقّري، أزهار الرياض ٧٤/٢.
(٢) نفسه ٧٧/٢.
(٣) الصَّعْدة: الرمح إذا كانت عصاه قد نبتت مستوية ولم تحتج إلى تثقيف (ابن هذيل، حلية الفرسان ص٢٠٣).
(٤) المقّري، أزهار الرياض ٨١/٢- ٨٢؛ نفح الطيب ١٩٥/٧- ١٩٦.

فأضحك زهرُ الروضِ منه أزاهرا وصبح حكى وجه الخليفة باهرا

تجسَّم من نور الهدى وتجسّدا

ويقول منه في وصف الطلبة(١):

وذاهِبةٍ في الجّو ملء عنانها وقد لفّعَتْها السُّحْبُ بُرْدَ عَنانِها

يفوتُ ارتدادَ الطرْفِ لمحُ عَيانها وختَّمَتِ الجوزاءُ سَبْطَ بنانِها

وصاغتْ لها حلْيُ النجوم مُقَيَّدا

أراها عمودُ الصُّبْح عُلْوَ المصاعِدِ وأوهما قربَ المدى المتباعِدِ

ففاتتْهُ سبقاً في مجال الرواعِدِ وأتحفتِ الكفَّ الخضيبَ بساعِدِ

فطوَّقتِ الزُّهْرَ النجومَ بها يدا

وقد قذفَتْها للعصيّ حواصِبُ قد انتشَرَتْ في الجوّ منها ذوائبُ

تزاور منها في الفضاء حبائبُ فبينهما من قبل ذاكَ مَنَاسِبُ

لأنهما في الروض قبلُ تولّدا

بناتٌ لأمٍ قد حيين بِرَوْحها(١) دعاها الهوى من بعد كتْم لبوْحِها

(١) المقّري، أزهار الرياض ٨٩/٢- ٩٠؛ نفح الطيب ٢٠٣/٧- ٢٠٤.

فأقلامُهـا تهـوي لخـطٍ بلوْحِهـا فبالأمْس كانت بعضَ أغصـانِ دوْحِها

فعادت إليها اليومَ من بعْدُ عُوَّدا

ويا رُبَّ حِصْنٍ في ذراها قد اعتلى أنـارت بـروجَ الأفق فـي مَظْهـر العُلا
بـروجُ قصـورٍ شِدْتَهـا متطـوّلا فأنشـأتَ برجـاً صاعـداً متنَـزّلا

يكـون رسـولاً بينها متـردّدا

وهـل هـي إلا هالـةٌ حـول بـدرها يصـوغ لهـا حَلْيـاً يليـق بنحرهـا
تطـوَّرُ أنواعـاً تشيـد بفخرهـا فحجـلٌ برجليهـا وشـاحٌ بخصـرها

وتاجٌ بأعلى رأسها قد تنضّـدا

أرادَ اسـتراقَ السَّـمْع وهـو ممنّـعُ فقـام بأذيـال الـدجى يتلفَّـعُ
وأصغـى لأخبـار السَّـما يتسمَّـعُ فأتبعـه منهـا ذوابـلُ شـرَّعُ

لتقذفه بالرجْـم[٢] مثنًى ومِوْحَـدا

ومـا هـو إلا قـائمٌ مـدَّ كفَّـهُ ليسـألَ مـنْ ربّ السـمواتِ لُطْفَـهُ
لمولـى تـولاه وأحكـم رَصْفَـهُ وكلَّـفَ أربـابَ البلاغـةِ وَصْفَـهُ

وأكـرمَ منه القانـتَ المتهجّـدا

ملاقـي ركْـبٍ مـن وفـودِ النواسِـمِ مقبّـل ثغـرٍ للبـروقِ البواسِـمِ
مختّـم كـلٍّ بالنجـوم العواتـم مبلّـغ قصـدٍ مـن حضـور المواسِـمِ

تجدّده مهمـا صنيعٌ تجـدّدا

---

(١) في النفح: قد حُبين لروحها.
(٢) في النفح: بالرعب.

(٦)

أنشد أبو الحسين بن فركون[١] السلطان يوسف الثالث قصيدة في سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م بمناسبة ولادة ابن للسلطان وإعذار أخوين لذلك المولود، ومطلع القصيدة[٢]:

سل البان عنها أين بانت ركابها ... ولمْ رفُعَتْ فوقَ المطيّ قبابُها

ومن أبيات هذه القصيدة في وصف رياضة الطبلة[٣]:

وصاعدةٍ في الجوّ ألقت ذيولها ... فراقَ بآفاق السحابِ انسحابُها
تحنُّ إليها الذابلاتُ فترتمي ... فروعاً يرينا الأصل كيف اجتذابُها
إذا ثبتت راقَ العيونَ ثباتُها ... أو انقبلت راقَ النفوسَ انقلابُها
كأنّ طيوراً في ذرى الجوّ حوّمَتْ ... وثابتْ لأوكارٍ بهنّ وثابُها
تقيمُ إذا لاقى الأمانَ ارتياعُها ... ورتّبما عنها ثناها ارتيابُها
إذا أخطأ الخطيُّ يهديه خطُّها ... وما كان يأبى أنْ يُصيبَ صوابُها
إذا اعتمدتْ قوسُ السماءِ عمودَها ... لرمْيٍ فسَهْمُ السَّعْدِ يدنيه قابُها

---

(١) أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي، أصله من المرّية، وانتقل جده إلى غرناطة، كان أبوه قاضياً فقيهاً وأديباً شاعراً. أدرك أبو الحسين مكانة كبيرة في عهد السلطان يوسف الثالث ملك غرناطة؛ فكان كاتب سره وشاعر دولته، ولد أبو الحسين حوالي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م، وارتسم في الكتابة سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، وتدرّج في المناصب حتى وفاة يوسف الثالث سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م. ولم تعرف تاريخ وفاة ابن فركون. (انظر تقديم الدكتور محمد بن شريفة لكتاب مظهر النور من جمع أبي الحسين بن فركون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩١م ص ٥- ١٢؛ وتقديم الدكتور محمد شريفة لديوان ابن فركون (ص ٧- ١٩).

(٢) ابن فركون، أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي، ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص (٣٣٨- ٣٣٩).

(٣) نفسه ص٣٤٣.

(٧)

من قصيدة لابن الحاجّ النميري[١]، مطلعها[٢]:

أتتك وقد هزَّ الدجى مضجع الفجْرِ بكأسين من ريقٍ بَرُودٍ ومن خَمْرِ

يصفُ جانباً من إحدى احتفالات الغني بالله محمد الخامس، قائلاً[٣]:

وقد صعدت في الجوّ آيةُ طبلةٍ تحاكي عمودَ الفجْر أسْفَرَ للسَّفْرِ
وأنحوْا عليها بالعصيّ كأنّها بُروقٌ ولكنْ بالبروقِ غدت تُزْري
من الطبلاتِ اللاءِ ما زال كسرُها لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبْرِ
وضاربها يومَ الوفودِ عقوقه وإنْ كان لا يخفى يُعَدُّ من البرّ
فذلك منه للجهاد تدرّبٌ سيسقي به الحزبَ الذي دانَ بالكفرِ
وقد جال نقعُ الخيْل في جنباتِها كما جال في الأفكار معنًى من الشعرِ

---

(١) أبو إسحق إبراهيم بن عبدالله بن محمد النميري، يعرف بابن الحاجّ، من أهل غرناطة، ولد بها سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، شاعر وكاتب له عدة مؤلفات في الأدب والبلاغة والرحلات والمذاهب وعلم الحديث والأحكام، وله رحلة سمّاها "فيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب" توجّه رسولاً عن سلطانه الغني بالله إلى تلمسان، فاعترض العدو السفينة التي كان بها، فوقع أسيراً، فافتداه سلطانه بسبعة آلاف من العين بعد أيام قلائل من أسره، وذلك سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م. وكان قد ارتسم في كتاب الإنشاء سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م وخدم في بلاط أبي عنان المرين إلى حين وفاته.
(انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ٣٤٢/١- ٣٦٣؛ الكتيبة الكامنة ٢٦٠- ٢٦٩؛ ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان ٣١٣- ٣١٨؛ المقّري، نفح الطيب ١٠٨/٧- ١٢١؛ وانظر الدراسة التي قدم بها الدكتور محمد بن شقرون لكتاب فيض العباب لابن الحاج ص١- ١٠٩، وقد نشر الكتاب في الرباط سنة ١٩٨٤م).

(٢) ابن الحاج النميري، قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبدالله بن نصر، مخطوط رقم Or. 5670 في المتحف البريطاني، ص٢٣.

(٣) المصدر السابق ص٢٤- ٢٥.

(٨)

من قصيدة لعبدالله بن لسان الدين بن الخطيب[١] في إعذار ابن للسلطان محمد ابن يوسف بن نصر الغنيّ بالله محمد الخامس، مطلعها[٢]:

أثرْهـــا عزمـــةً تنفـــي الركابـــا وإنْ دمَيـــتْ لهـــا العـــيْنُ انســـكابا

يقول في بعض أبياتها في وصف الطبلة[٣]:

وســـاقيةِ العمـــادِ إذا أطلَّـــتْ إلـــى الأدواح تنســـابُ انســـيابا

تحـومُ بهـا العصـيُّ فـراشَ ليـل تـــروم بســـمعِهِ منـــه اقترابـــا

تحـفُّ بهـا خيـولُ القـوم منّـا فَتُرْسِـلُ نحوهـا الجـرْدَ العِرابـا

عجائـبُ أبـدعَتْ عليـاك فيهـا ومثلـك يبـدعُ الأمْـرَ العجابـا

(١) ولد بغرناطة سنة ٧٤٣هـ، وحدّث عن أبيه لسان الدين بن الخطيب، وعن ابن الجيّاب، وكتب بالعدوتين لملوك الحضرتين (النصرية والمرينية) وتولّى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبّر الدولة، وكان شاعراً، وقرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسيني والخطيب أبي سعيد فرج بن لبّ التغلبي (انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة (نصوص جديدة لم تنشر)، تحقيق: د. عبدالسلام بن شقور، تطوان، المغرب، ١٩٨٨، ص١٢٣- ١٣٢، المقّري، نفح الطيب ٢٨٩/٧- ٢٩٩).

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة (نصوص جديدة لم تنشر) ص١٣٠؛ نفح الطيب ٢٩٧/٧.

(٣) المصدران السابقان.